فن التناسب فى البلاغة العربية

الدكتور / عبد الرازق محمـد محمود فضل
مدرس البلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية بدمنهور

« الحمد لله رب العالمين ـ الرحمن الرحيم ـ مالك يوم الدين ـ اياك نعبد واياك نستعين ـ اهدنا الصراط المستقيم ـ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

اللهم صلى على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا ابراهيم وعلى آل سيدنا ابراهيم ، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا ابراهيم وعلى آل سيدنا ابراهيم فى العالمين انك حميد مجيد .

وبعـد ...

فقد عمدت هذه الدراسة الى التناسب المرعى فى بلاغة هذه اللغة الشاعرة تستوضحه وتستجليه واضعة نصب عينيها ما يلى :

أولا : خير وسيلة للدرس البلاغى المتأمل الالتزام بالمنهج التطبيقى .

ثانيا : التناسب الذى كلفت هذه الدراسة بتأمله رحب الميدان يدرج مع الكلمة العربية منذ طفولتها ، ولذلك فقد سايرته هذه الدراسة فيما يلى :

١ ــ التناسب فى حروف الكلمة •

٢ ــ التناسب فى كلمات الجملة •

٣ ــ التناسب فى جمل العبارة •

وهذا الأخير صبرت له هذه الدراسة وغاصت فى ثناياه فدرست مناسبة الكلمة للكلمة ، ومناسبة الكلمة للمعنى ، ومناسبة المعنى للمعنى •

ثالثا : اعتمدت هذه الدراسة فى تطبيقاتها على شعر العرب ، وحديث سيدنا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وجعلت من آى القرآن الكريم مسك الختام فى هذه التطبيقات •

رابعا : جهدت هذه الدراسة ــ مع أنها تستضىء بمصابيح السابقين ــ أن تتخير من المثل التطبيقية ــ جلها ــ ما لم يختره غيرها من قبل وهى على يقين ثابت بأنها ليست من الفرسان الذين من حقهم دخول حلبة هذا الميدان لكنها تريد أن تبلغ نفسها عذرها ، وقد قالوا «ومبلغ نفسى عذرها مثل منجح » •

وهذه الدراسة من قبل ومن بعد تدعو الله عز وجل مستعيذة به من العجب بما تحسن ومن التكلف لما لا تحسن ، ومن أن تقول زورا أو تكون به ــ عز وجل ــ مغرورة وتسأله من خير ما سأله عبده ونبيه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ربنا وتقبل دعاء •

التناسب الذى يدور عليه :

حديثنا ليس ذلك الذى يتعلق بما يكون بين الجمل التى لا محل لها من الاعراب فقط — كما ذهب كثير من البلاغيين — وانما نوسع فيه نطاق البحث بما يجعله يدرج مع اللفظة الواحدة فيلحظ ما يكون بين حروفها من تناسب كما يلحظ ما يكون بين الكلمة والكلمة ، وما يكون بين الجملة والجملة سواء أكان لها محل من الاعراب أم لم يكن لها منه محل .

التناسب فى حروف الكلمة :

وقد عرف الأقدمون تناسب أجزاء الكلمة الواحدة وعدوا الكلمة اذا خلت من هذا غير فصيحة ، فكان من شروط فصاحة الكلمة خلوها من تنافر الحروف(١) وما تنافر الحروف الا عدم مناسبة بعضها لبعض ، فالألفاظ داخلة فى حيز الأصوات لأنها مركبة من مخارج الحروف فما استلذه السمع منها فهو الحسن ، وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح(٢) .

ألا ترى الى كلمة الهعخع التى مثلوا بها لتنافر الحروف تنافرا شديدا ، ما خرج بها عن الفصاحة الا أن أجزاءها غير متناسبة مما أدى الى ثقلها فى النطق حتى قال عنها الخليل — كما نقل عنه ابن سنان « سمعنا كلمة شنعاء هى الهعخع » وقد عدها ابن سنان من المهمل الذى يصعب النطق به(٣) .

---

(١) التنافر فى اللغة التفرق والاعراض وعند البلاغيين هو وصف فى الكلمة يوجب ثقلها على اللسان وعسر النطق بها . المطول / ١٦ .

(٢) المثل السائر لابن الأثير / ١ / ١٦٩ .

(٣) سر الفصاحة /٤٨ .

وكذلك كلمة (مستشزرات) التى مثلـوا بها للتنافر الذى تكون بسببه الكلمة ثقيلة فى النطق ثقلا دون الأول • ما كان التنافر فيهـا الا بسبب بعد المؤاخاة بين حروفها ، أى بسبب بعد المناسبة بين حروف هذه الكلمة •

ولقد تحدث أهل العلم عن سبب تنافر الحروف فذكر الخليل ابن أحمد أن مرجعه الى جمع الحروف المتباعدة فى المخارج أو الحـروف المتقاربة فيها ، ووصف الجمع بين حروف متباعدة المخارج بأنه كالطفر، كما وصف الجمع بين حروف متقاربة بأنه كالمشى فى القيد ، وكلاهمـا صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك فى الاعتدال ، ولذلك وقـع فى الكلام الابدال والادغام(٤) •

وذكر ابن سنان أن التنافر ينشأ عن الجمع بين الحروف المتقاربة المخرج حيث قال « ولا أرى التنافر فى بعد ما بين مخارج الحـروف وانما هو فى القرب ويدل على صحة ذلك الاعتبار ، فان هذه الكلمـة (ألم) غير متنافرة وهى مع ذلك مبنية من حروف متباعدة المخارج، لأن الهمزة من أقصى الحلق ، والميم من الشفتين واللام تتوسط بينها ، وكذلك أم — وأو — ، لأن الواو من أبعد الحروف عن الهمزة ، وليس هذان المثلان مثل عح — ولاسز ، لما يوجد فيهما من التنـافر لقرب ما بين الحرفين فى كل كلمة ، ومتى اعتبرت جميع الأمثلة لم تر البعد الشديد وجها فى التنافر(٥) •

وقد ناقش البهاء السبكى ابن سنان فيما ذهب اليه وأورد عليـه كلمات فصيحة مكونة من حروف متقاربة فى المخرج مثل الشجر والجيش والفم ، كما أورد عليه كلمة (ملع) بمعنى أسرع وهى كلمة قبيحة رغم تكونها من حروف متباعدة المخارج ، وخلص — رحمه الله — الى

---

(٤) راجع ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن /٨٨ وسر الفصاحة /٩١
(٥) سر الفصاحة / ٩١ بتصرف يسير •

أن التنافر قد يكون فى الحروف المتباعدة والحروف المتقاربة على سبيل الغلبة لا اللزوم(٦) .

وقد كان أبو هلال العسكرى فى نصحه لصانعى الكلام أريبا حصيفا اذ رد شين الألفاظ الى التعقيد ، ورد التعقيد الى التوعر ، وجعل المنزلة السميا التى لا يحتلها الا البليغ فيمن كان لفظه شريفا عذبا ، وفخما سهلا ، وانظر الى وصف اللفظ بالفخامة والسهولة فى آن ، انه ذلك اللفظ الذى تنساب به أعضاء النطق من غير توعر ولا تكدر ، تكون فيه فخامة العربية وفصاحتها كما تكون فيه مناسبة الجرس الصوتى للمعنى الذى يراد للفظ أن يفضى بالقارىء اليه(٧) واذا كان أبو هلال حصيفا فيما ذهب اليه فان حصافته تبدو ألمع وبراعته أقوى وأحد حين يذكر أن من أحسن نعوت الكلام وأزين صفاته أن يكون منظوما من حروف سهلة المخارج(٨) .

فوصف المخارج بالسهولة وترك بيان سبب هذه السهولة يشهد بأن مرجع ذلك الى الذوق وليس الى قاعدة ثابتة لا تتزحزح ولا تلين .

وعلى طريق أبى هلال سار ابن الأثير حيث قال : «لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ ، وهل هى متباعدة أو متقاربة ، لطال الخطب فى ذلك وعسر ، ولما كان الشاعر ينظم قصيدا ولا الكاتب ينشىء كتابا الا فى مدة طويلة تمضى عليها

---

(٦) شروح التلخيص عروس الأفراح ٨٢ وقد عاد السبكى بعد ذلك الى ترجيح أن منشأ التنافر هو الجمع بين حروف متقاربة قال « وحيث دار الحال بين الحروف المتباعدة والمتقاربة فالمتباعدة أخف » السابق فى نفس الصفحة .

(٧) انظر الصناعتين / ١٥٢ .

(٨) السابق / ١٥٩ .

أيام وليال ذوات عدد كثير ، ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك فان حاسة السمع هى الحاكمة فى هذا المقام بحسن ما يحسن من الألفـاظ وقبح ما يقبح ، وضرب ابن الأثير لذلك مثلا فقال « اذا سئلت عن لفظة من الألفاظ ، وقيل لك : ما تقول فى هذه اللفظة ، أحسنة هى أم قبيحة ؟ فانى لا أراك عند ذلك الا تفتى بحسنها أو قبحها على الفور،ولو كنت لا تفتى بذلك حتى تقول للسائل : اصبر الى أن أعتبر مخارج حروفها، ثم أفتيك بعد ذلك بما فيها من حسن أو قبح ، لصح لابن سنان ما ذهب اليه من جعل مخارج الحروف المتباعدة شرطا فى اختيار الألفاظ، وانما شذ عنه الأصل فى ذلك وهو أن الحسن من الألفاظ يكون متباعد المخارج ، فحسن الألفاظ اذن ليس معلوما من تباعد المخارج ، وانما علم قبل العلم بتباعدها .

وكل هذا راجـع الى حاسة السـمع ، فاذا استحسنت لفظـا أو استقبحته وجدت ما تستحسنه متباعد المخـارج ، وما تسـتقبحه متقارب المخارج واستحسانها واستقباحها انما هو قبل اعتبار المخارج، لا بعده .

على أن هذه قاعدة قد شذ عنها شواذ كثيرة ، لأنه قد يجىء فى المتقارب المخارج ما هو حسن رائق .

ألا ترى أن الجيم والشين والياء مخارج متقاربة ، وهى من وسط اللسان بينه وبين الحنك ، وتسمى ثلاثتها « الشجرية » واذا تركب منها شىء من الألفاظ جاء حسـنا ، فان قيل (جيش) كانت لفظـة محمودة ، أو قدمت الشين على الجيم فقيل « شـجى » كانت أيضـا لفظة محمودة .

ومما هو أقرب مخرجا من ذلك الباء والميم والفـاء وثلاثتها من

الشفة وتسمى الشفهية فاذا نظم منها شىء من الألفاظ كان جميلا حسنا كقولنا (فم) فهذه اللفظة من حرفين هما : الفاء والميم،وكقولنا (ذقته بفمى) وهذه اللفظة مؤلفة من الثلاثة بجملتها ، وكلاهما حسن لا عيب فيه .

وقد ورد من المتباعد المخارج شىء قبيح — أيضا — ، ولو كان التباعد سببا للحسن لما كان سببا للقبح ، اذ هما ضدان لا يجتمعان، فمن ذلك أنه يقال (ملع) اذا عدا ، فالميم من الشفة ، والعين من حروف الحلق ، واللام من وسط اللسان وكل ذلك متباعد ، ومع هذا فان هذه اللفظة مكروهة الاستعمال ينبو عنها الذوق السليم ولايستعملها من عنده معرفة بفن الفصاحة .

وها هنا نكتة غريبة وهو أنا اذا عكسنا حروف هذه اللفظة صارت (علم) وعند ذلك تكون حسنة لا مزيد على حسنها .

وما ندرى كيف صار القبح حسنا ؟ لأنه لم يتغير من مخارجها شىء وذلك أن اللام لم تزل وسطا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها ولو كانمخارج الحروف معتبرا فى الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة فى (ملع) و (علم) فان قيل : ان اخراج الحروف من الحلق الى الشفة أيسر من ادخالها من الشفة الى الحلق فان ذلك انحدار وهذا صعود والانحدار أسهل ، فالجواب عن ذلك انى أقول : لو استمر لك هذا لصح ما ذهبت اليه لكنا نرى من الألفاظ ما اذا عكسنا حروفه من الشفة الى الحلق أو من وسط اللسان أو من آخره الى الحلق لا يتغير كقولنا : (غلب) فان الغين من حروف الحلق واللام من وسط اللسان والباء من الشفة ، واذا عكسنا ذلك صار (بلغ)وكلاهما حسن مليح وكذلك تقول : (حلم) من الحلم وهو الأناة واذا عكسنا

هذه الكلمة صارت (ملح) على وزن فعل بفتح الفاء وضم العين وكلاهما حسن مليح •

وكذلك تقول : (عقـر) و (رقع) و (عرف) و (فرع) و (حلف) و (فاح) و (قلم) و (ملـق) و (كلم) و « ملك » ولو شئت لأوردت من ذلك شيئا كثيرا تضيق عنه هذه الأوراق •

وان كان ما ذكرته مطردا لكنا اذا عكسنا هذه الألفاظ صـار حسنها قبحا ، وليس الأمر كذلك(٩) •

وقد وقف السعد التفتازانى مؤيدا لابن الأثير فقال : بعـد أن نقل ملخص رأى ابن الأثير « فالأولى أن يحال الى الذوق »(١٠) •

وهذا الرأى هو المرجح عندنا ، لأننا نرى أن هذه اللغة لغـة حس شاعر ترفده بما يرضيه ويرتضيه ، والذوق ــ فى الأعم الأغلب ــ لا قاعدة له ، فكم من كلمات ألفت من حروف لا أقول متقـاربة المخارج بل أقول : ألفت من حروف متماثلة وما كان فيهـا تنـافر بل كانت الأصوات تنساب بها انسياب الماء المسلسل الرقراق واقرأ ان شئت قوله تعالى « قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك »(١١) فقد توالى فى « أمم ممن معك » ثمانى ميمات دون أن يكون هناك أدنى عسر فى النطق • بل ازدادت ــ كما ترى خفة •

---

(٩) المثل السائر ١/١٧٣ وما بعدها •

(١٠) المطول /١٧ •

(١١) هـود ٤٨ لاحظ أن التنوين فى « أمم » والنـون فى « ممن » يدغمان فى الميم بعدهما فيصيران فى حكم ميم أخـرى والميم المشـددة فى « ممن » بميمين وفيه أربع أخر فهذه ثمانية •

وماذا نقول فى قوله تعالى « ألم أعهد اليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين »(١٢) .

على أن هناك من الباحثين من التقط مناسبة معنوية للكلمات التى بها تنافر حروف وجعل ذلك من قبيل مناسبة اللفظ للمعنى ، فكلمة مستشزرات مثلا أتى بها امرؤ القيس ثقيلة فى النطق للدلالة على أن شعر المتحدث عنها كثيف ثقيل متزاحم ويؤيد ذلك قوله فى الشطر الثانى

تضل العقاص فى مثنى ومرسل

كما بين أن البلاغيين لم يلتفتوا الى الجمال الموجود فى بيت الأعشى المشهور :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعنى　　　شاو مشل شلول شلشل شول

لأنه يصور بذكر الشين ست مرات فى البيت حديث السكارى المتخبط المتعثر(١٣) ولئن كان لهذا الرأى مبرراته الا أن نواحى المؤاخذة عليه كثيرة ، وبخاصة فى بيت الأعشى حيث ان الثقل فيه ليس ناشئا عن تنافر الحروف وانما مرده تكرار كلمات غلب على مادتها حروف الشين ، ألا ترى أن كلمة (شاو) وحدها سهلة النطق لا ثقل فيها وكذلك (مشل) بل و (شلول) و (شلشل) ما جاء الثقل الا من تكرار الكلمات المستولى عليها حرف الشين .

وكذلك الأمر فى بيت أبى تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى　　　واذا ما لمته لمته وحدى

---

(١٢) يس ٦٠ .

(١٣) راجع الشعر الجاهلى منهج دراسته وتقويمه للدكتور محمد النويهى ٤٤/١ وما بعدها .

قال السعد — رحمه الله — « قال المصنف — يقصد مصنف التلخيص الخطيب القزوينى — فان فى أمدحه ثقلا لما بين الحاء والهاء من القرب ، ولعله أراد أن فيه شيئا من الثقل والتنافر فاذا انضم اليه أمدحه الثانى تضاعف ذلك الثقل وحصل التنافر المخل بالفصاحة ولم يرد أن مجرد أمدحه غير فصيح فان مثله واقع فى التنزيل نحو : «فسبحه» والقول باشتمال القرآن على كلام غير فصيح مما لا يجترىء عليه المؤمن ، صرح بذلك ابن العميد وهو أول من عاب هذا البيت على أبى تمام حيث قال : هذا التكرير فى أمدحه أمدحه مع الجمع بين الحاء والهاء وهما من حروف الحلق خارج عن حد الاعتدال نافر كل التنافر ولو قال : فان فى تكرير أمدحه ثقلا لكان أولى »(١٤) .

وأيما كان الأمر فانا لم نورد ما أوردنا لنخوض فى حديث تنافر الحروف ، وانما كان قصدنا بيان أن المناسبة باسطة ظلالها فى ربوع بلاغة هذه اللغة سواء فى ذلك الحروف التى هى مادة المفردات ، والمفردات التى هى مادة الجمل ، والجمل التى هى مادة الفقر والفقر التى هى مادة الكلام .

والمثل فى ذلك كلام الله — عز وجل — لم يكن لمن يسمعه بد من الاسترسال اليه والتوفر على الاصغاء ، لا يستمهله أمر من دونه وان كان أمر العادة ولا يستنسئه الشيطان وان كانت طاعته عندهم عبادة، فانه انما يسمع ضربا خالصا من الموسيقا اللغوية فى انسجامه واطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس مقطعا مقطعا ونبرة نبرة كأنها توقعه توقيعا ولا تتلوه تلاوة ، والروايات التى ثبتت لهذا المعنى كثيرة ، وما أسلم عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — على شدته وعنفه الا حين رق للقرآن وما عبد الله جهرة الا منذ أسلم عمر لكن أبلغ ما يثبت

---

(١٤) المطول ٢٠ وما بعدها .

هذا المعنى ما رووه من أن ثلاثة من بلغاء قريش الذين لا يعدل بهم فى البلاغة أحد ، وهم الوليد بن المغيرة،والأخنس بن قيس وأبو جهل ابن هشام اجتمعوا ليلة يسمعون القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو يصلى به فى بيته الى أن أصبحوا فلما انصرفوا جمعتهم الطريق فتلاوموا على ذلك وقالوا : انه اذا رآكم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوه واستمعوا الى ما يقوله واستمالهم وآمنوا به.فلما كان فى الليلة الثانية عادوا وأخذ كل منهم موضعه ، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فاشتد نكيرهم وتعاهدوا وتحالفوا ألا يعودوا ، فلما تعالى النهار جاء الوليد بن المغيرة الى الأخنس بن قيس فقال : ما تقول فيما سمعت من محمد ؟ فقال الأخنس : ماذا أقول ؟ قال بنو عبد المطلب : فينا الحجابة . قلنا : نعم ، قالوا فينا السدانة ، قلنا، نعم ، قالوا فينا السقاية . قلنا : نعم . يقولون فينا نبى ينزل عليه الوحى ! والله لا آمنت به أبدا ! فما صدهم الا العصبية وما أخذ بلب هؤلاء الا أنهم وجدوا أنفسهم أمام قول معجز من عدة وجوه ، وجدوا أنفسهم أمام ظاهرة صوتية متناسبة لا ترى فيها نشوزا ولا نبوا ، رأوا أنفسهم أمام كلام ترى حروفه فى كلماته وكلماته فى جمله ألحانا لغوية رائعة كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة(١٥) .

ولذلك عد الرافعى — رحمه الله — النظم الموسيقى فى القرآن وجها من وجوه اعجازه ذلك أنك لو عمدت الى قطعة من نثر الفصحاء ترتلها على طريقة التلاوة فى القرآن الكريم مما تراعى فيه أحكام القراءة وطرق الأداء لظهر لك فيها من النقص ما لم تكن لتتبينه لو انك أرسلته فى نهجه وأخذته على جملته ، وليس كذلك كلام الله —

---

(١٥) انظر اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ٢١٢ وما بعدها

عز وجل ــ فانك كلما حسنت تلاوته كلما كان الأثر فى السامعين عظيما عظيما ، وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربى أو أعجمى

وهذه هى طريقة الاستهواء الصوتى فى اللغة ، وأثرها طبيعى فى كل نفس ، فهى تشبه فى القرآن الكريم أن تكون صوت اعجازه الذى يخاطب به كل نفس تفهمه ، وكل نفس لا تفهمه ، ثم لا يجد من النفوس على أى حال الا الاقرار والاستجابة ، ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الذى يطمع فيه أو فى أكثره ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية الى أهل اللغات الأخرى ولكنه انفرد بهذا الوجه للعجز فتآلفت كلماته من حروف لو سقط منها واحد أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللا بينـا أو ضعفا ظاهرا فى نسق الوزن وجـرس النغمة ، وفى حس السـمع وذوق اللسان ، وفى انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وافضاء بعضها الى بعض ولرأيت لذلك هجنة فى السمع كالذى تنكره من كل مرئى لم تقع أجزاؤه على ترتيبها ولم تتفق على طبقـاتها ، وخرج بعضها طولا وبعضها عرضـا ، وذهب ما بقى منهـا الى جهات متناكرة(١٦) .

التناسب بين الكلمة والكلمة:

جعل العلامة ابن الأثير نظم كل كلمة مع أختهـا كالعقد المنظوم فى اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها(١٧) كما جعـل الرافعى القرآن الكريم المعجم التركيبى للغة وقال : العرب أوجدوا اللغة مفردات فانية وأوجدها القـرآن تراكيب خالدة(١٨) ولعمر الحق ما كان للكلمة مفردة مقطوعة عمـا قبلها وما بعدها ــ مهما كانت فصاحتها ــ من

---

(١٦) السـابق ٢١٧ .

(١٧) المثل السـائر ١٦٣/١ .

(١٨) انظر اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٤٧ وكذلك ٢٥٢ .

قيمة تجيز لنا أن نحكم لها ولقائلها أو أن نحكم عليها وعليه فليست المزية للفظة الا من حيث مؤانستها لأخواتها وحسن ملائمة معناها لمعانى جاراتها » وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة وفى خلافها قلقة ونابية ومستكرهة الا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم،وأن الأولى لم تلق بالثانية فى معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية فى مؤداها(١٨) •

ومن الأدلة على أن اللفظة — مهما كانت فصاحتها — لا تكون موضعا للمدح أو القدح الا اذا كانت فى تركيب أن اللفظة ذاتها تحسن فى موضع وتقبح هى عينها فى موضع آخر •

ما كان ذلك الا لأنها فى الموضع الأول أحسن اختيار موقعها بين جاراتها ، ولم يحسن استعمالها فى الموضع الآخر •

أرأيت الى كلمة (الأيادى) مستعملة مجازا عن النعمة فى قول القائل :

له أياد على سابغة　　　أعد منها ولا أعددها

انها أعطت من المعانى ما لا يمكن أن تعطيه كلمة (نعم) مثلا لو وضعت موضعها ذلك أنها تدل على نعم أجهد المنعم نفسه فى ايصالها الى المنعم عليه ، ولم يلقها اليه القاء ساهما سادرا ، وانظر الى تنكير (أياد) وما يرمى به ذلك التنكير من معانى الوفرة والكثرة وعظم ذلك (الأيادى) ونبل غرضها •

---

(١٨) دلائل الاعجاز تحقيق الشيخ محمود شاكر / ٤٤ ، ٤٥ بتصرف يسير •

هذه الكلمة ذاتها وقعت موقعا آخر فقلقت وأقلقت وضج بها موقعها ونبا بها أذن سامعها :

اذا ما الدهر جار جـرت أيادى   يديه فغشت الدنيا الظلالا(١٩)

ما أيادى يديه ، وما لهذه الياءات تكاد تلوى لسان الناطق بها ، انه التكلف الذى راد هذه الكلمة على ما يسوؤها ويسوء بها وهى صالحة لأن تكون الحسن ذاته اذا أحسن وضعها بحيث تكون مؤانسة لجـاراتها .

وليت الوحشة كانت فى (أيادى يديه) وحسب انما انظـر الى كلمة (غشت) وما الذى غشـّى به انه الظلال غشـّيت به الدنيـا فهو ظلال مغشى به وليس ظلالا وارفا متفيأ .

وكذلك لفظ (الأخدع) فى بيت الحماسة وهو للصمة بن عبدالله القشيرى :

تلفت نحو الحى حتى وجـدتنى   وجعت من الاصغاء ليتا وأخدعا

وفى بيت البحترى :

وانى وان بلـغتنى شرف الغنى   وأعتقت من ظل المطامع أخدعى

فان له فى هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن ، ثم انك تتأمله فى بيت أبى تمام :

يا دهر قم من أخدعيك فقد   أضججت هذا الأنام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص أضعاف ما وجدت

---

(١٩) البيت لأبى تمام فى ديوانه .

هناك من الروح والخفة ومن الايناس والبهجة(٢٠) .

وانما حسنت كلمة (الأخدع) فى بيت القشيرى لأن المعنى يدور حول تلفت طال حتى وجع منه صاحبه ، والعادة أن وجع التلفت يظهر أول ما يظهر على صفحة العنق فاذا اشتد تعداها الى ذلك العرق وأحس المتلفت بحرارة حادة تكاد تحرق أخدعيه .

فكلمة (أخدع) هنا حسن موقعها ولو نقبت فى معاجم اللغـة تحاول أن تجد من الكلمات ما يقوم مقامها هنا لأعياك التنقيب وأبت وليس الى تحقيق مبتغاك سبيل ، وقد كان الامام عبد القاهر حصـيفا فى الاستشهاد لحسن هذه الكلمة ببيت البحترى ، ما أراه أورده عقيب الأول الا ليبين أن الكلمة سواء أكانت مستعملة على سبيل الحقيقة أم على سبيل المجاز لا يكون لها مزية الا اذا حسن مؤانستها لجاراتها وكانت صـالحة لأن تكون لفقة للتـالية فى مؤداها ، فان أخدع بيت القشيرى جاء على سبيل الحقيقـة(٢١) وفى بت البحترى جـاء على سبيل المجاز .

وانما قبح فى بيت أبى تمام ، لأنه أغرب فى الاستعارة بحيث انها لم تغص فى أعماق معنى الدهر وما ينسب اليه من المكائد والحـبائل وقنعت بأن تجعل منه مجرد صفحة عنـق على جانبها عرق أصـابه التواء .

وهكذا ــ كما يقول ابن الأثير ــ أن المزية الكبرى للفظة لاتكون ولا تظهـر الا اذا أحسن نظمها ، وذلك أنه يحـدث عنه من فوائد

---

(٢٠) دلائل الاعجاز ٤٧ .

(٢١) لا يخفى أنه وان كان اللفظ مسـتعملا فى معناه الا أن وراء الألفاظ كناية عن شدة الارهاق وبالغ الوصب .

وانظر ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ من هذا الكتاب ،

التأليفات والاقتراحات ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التى كانت مفردة •

ومثال ذلك كمن أخذ لآلىء ليست من ذوات القيم الغالية ، فألفها وأحسن الوضع فى تأليفها ، فخيل للناظر بحسن تأليفه واتقان صنعته أنها ليست تلك التى كانت منثورة مبددة ، وفى عكس ذلك من يأخذ لآلىء من ذوات القيم الغالية فيفسد تأليفها فانه يضع من حسنها ، وكذلك يجرى حكم الألفاظ العالية مع فساد التأليف ، وهذا موضع شريف ينبغى الالتفات اليه والعناية به(٢٢) •

ولذلك وصفوا الكلام بصفات منها انه سكر الشباب ، وأنه كمثل المسك شبيت به الخمر ، وانه كالقطر يسمعه راعى سنين تتابعت جدبا ، وانه السحر الحلال كما قال على بن العباس :

وحديثها السحر الحلال لو انه
لم يجن قتل المسلم المتحرز
ان طال لم يملل وان هى أوجزت
ود المحدث أنها لم توجز
شرك العقول ونهزة ما مثلها
للمطمئن وغفلة المستوفز (٢٣)

ومهما يكن من أمر فان غرضنا هنا أن نقرر ــ غير مبالغين ــ أن التناسب هو الباب الذى يسرى من خلاله البليغ الى قوة التأثير والاقناع والامتاع ، وأن أحسن نعوت الكلام وأزين صفاته انما تواتيه

---

(٢٢) المثل السائر ١/٢٠٩ •
(٢٣) انظر الأمالى للقالى ١/٨٤ •

حين يحسن المتكلم تخير الألفاظ ويكون خبيرا بإبدال بعضها من بعض بحيث يتحقق الالتئام .

وأن هذه المناسبة تكون بين الكلمة والكلمة وتكون بين الكلمة ومعناها ، وتكون بين الكلمة وسياق الكلام ، ولذلك عاب أبو بكر ابن دريد قول القائل :

طرقتك عزة من مزار نازح يا حسن زائرة وبعد مزار

وقال : لو قال : يا قرب زائرة وبعد مزار لكان أجود(٢٤) .

كما عاب غيره قول أبى تمام فى مدح محمد بن الهيثم بن شبانة:

زعمت هواك عفا الغداة كما عفا
عنها طلول باللوى ورسوم

لا والذى هو عالم أن النوى
صبر وأن أبا الحسين كريم

مازلت عن سنن الوداد ولا غدت
نفسى على الف سواك تحوم

لانه جمع بين غير متناسبين هما مرارة النوى وكرم أبى الحسين ولا جهة يسوغ من أجلها الجمع(٢٥) .

ولقد رووا أنه اجتمع النصيب والكميت وذو الرمة فأنشدهما

---

(٢٤) انظر الصناعتين ١٥٧ وما بعدها .

(٢٥) ذكر السعد أن العطف فى البيت الثانى يجوز أن يكون عطف مفردين وأن يكون عطف جملتين . انظر المطول ٢٤٨ .

الكميت قصيدته « هل أنت عن طلب الايفاع منقلب » حتى اذا بلغ منها قوله :

أم هل ظعائن بالعلياء نافعة وان تكامل فيها الأنس والشنب

عقد نصيب واحدة ، فقال له الكميت : ماذا تحصى ؟ قال: خطأك، باعدت فى القول ، ما الأنس من الشنب ، ألا قلت كما قال ذو الرمة:

لمياء فى شفتيها حوة لعس وفى اللثات وفى أنيابها شنب

فانكسر الكميت ...

وذكر الآمدى ان الكميت عيب بأن جمع كلمتين لا تشبه احداهما الأخرى وذكر البيت برواية أخرى :

وقد رأينا بها حـــورا منعمة رودا تكامل فيها الدل والشنب

وقال : « الدل انما يكون مع الغنج أو نحوه(٢٦) والشنب انما يكون مع اللعس أو ما يجرى مجراه من أوصاف الثغر والفم، والجيد ما قاله ذو الرمة » .

والكميت لم ينتبه الى هذا النبو حتى بعدما أنشد أصحابه ورأى النصيب يعقد واحدة ، وانما لفته قول النصـــيب « باعدت ما الأنس من الشنب » فوضع يده موضع الخلل وحينئذ انكسر الكميت ، وهذا الانكسار لايكون الا لخلل معيب، والكميت الذى خفى عليه هذا العيب من الفحـــول الذين غلبوا على الشعر وافتتحـــوا معانيه وصاروا قـــدوة واتبعهم الشعراء ــ كما قال الآمدى(٢٧) ومن أقرب ما يدل على ذلك

---

(٢٦) قال فى اللســـان : امرأة غنجـــة (كفرحة) حســـنة الدل ، والغنج بضم الغين فى الجارية تكسر وتدلل .

(٢٧) انظر دلالات التراكيب للدكتور أبى موسى ٢٧١ ، ٢٧٢ .

قصة الخنساء ونقدها فى عكاظ على حسان بن ثابت حين أنشدها قوله:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجـــدة دما

ولدنا بنى العنقـــاء وابن محــرق
فأكرم بنا خـــالا وأكرم بنا ابنمـــا

فقالت الخنساء : ضعفت افتخارك وأبرزته فى ثمانية مواضع . قال : وكيف ؟ قالت قلت « لنا الجفنات » والجفنات ما دون العشرة فقللت العدد ، ولو قلت « الجفان » لكان أكثر ، وقلت : « الغـــر » والغرة البياض فى الجبهة ، ولو قلت « البيض » لكان أكثر اتســـاعا وقلت « يلمعن » واللمع شىء يأتى بعد الشىء ولو قلت « يشرقن » لكان أكثر ، لأن الاشراق أدوم من اللمعان ، وقلت « بالضـــحى » ولو قلت « بالعشية » لكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف بالليل أكثـــر طروقا ، وقلت : « أسيافنا » والأسياف دون العشرة ولو قلت سيوفنا كان أكثر ، وقلت « يقطـــرن » فدللت على قلة القتـــل ، ولو قلت « يجرين » لكان أكثر لانصباب الدم ، وقلت « دما » والدماء أكثر من الدم ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدوك(٢٨) .

وليس من غرضنا الاستقصاء فى ذكر الآثار العربية التى أثنى عليها لمراعاة التناسب أو التى عيب عليها اختلال التناسب، فان الاستقصاء هنا مما يخرج عن طوق الاعتدال ويفضى الى الســـأم والملال(٢٩) ، ويكفى أن نذكر أن الفصحاء المفلقين اشتدوا فى النعى على الكلام الذى لا نعاج له ولا رابط .

---

(٢٨) انظر اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٢٥ .

(٢٩) ان أردت المزيد فراجع الأمالى ٧٨ .

هذا ابن الأعرابى يقول :

وبات يدرس شعرا لا قران له قد كان ثقفه حولا فما زادا

وهذا خلف الأحمر يقول :

وبعض قريض القوم أبناء علـة يكد لسان الناطق المتحفظ

وهذا أبو البيداء الرياحى يقول :

وشعر كبعر الكبش فرق بينه لسان دعى فى القريض دخيل

وقد شرح الجاحظ ذلك فقال « أما قول خلف : « وبعض قريض القوم أولاد علة » فانه يقول : اذا كان الشعر مستكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات ، واذا كانت الكلمة ليس موقعها الى جنب أختهـا مرضيا موافقا كان على اللسان عند انشاد ذلك الشعر مؤونة ، وأما قوله « كبعر الكبش » فانما ذهب الى أن بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجاور ، وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشـعر تراها متفقةملساء ولينة المعاطف سهلة ، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده ، والأخرى تراها سهلة لينة ورطبة مواتية ، سلسة النظام ، خفيفة على اللسان ، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد(٣٠) .

ومن تناسب اللفظ مع اللفظ ما سماه البلاغيون مراعاة النظير،ومن العجيب أن هذه المناسـبة جعلها متأخرو البـلاغيين بابا من أبواب البديع الذى وسموه بأنه وجوه تورث الكلام حسنا يصار اليها بعد

---

(٣٠) انظر البيـان والتبيين ١/٣٧ ، ٣٨ وكذلك دلالات التراكيب ٢٧٠ .

بلاغة الكلام واستيفائه حاجة السامع والمقام ، مع أن المعنى اللغوى لكلمة « النظير »(٣١) يدلنا على أن معناه الجمع بين كلم متآلف مربوط بعضه ببعض تأخذ كل كلمة فيه بحجزة أختها ، ولذلك سماه بعض البلاغيين ائتلاف اللفظ والمعنى ، كما سماه بعضهم التناسب والتوفيق والمؤاخاة .

ومن هذا التناسب مناسبة اللفظ للفظ ومن أمثلته قوله تعالى : « قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين »(٣٢) .

القسم (بتالله) أقل فى الاستعمال من القسم بالباء أو الواو ، واستعمال تفتأ أقل من استعمال أخواتها (تزال وتبرح) ، ولفظ (حرضا) أقل استعمالا من (هلاكا) ، فلما أتى فى القسم بما هو أقل فى الاستعمال حشد بجواره من الكلم ما كان أقل من مرادفه فى الاستعمال كذلك ، لتحصل المناسبة وتأتلف الألفاظ بعضها مع بعض .

ومن هذا القبيل قول سيدنا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيما أخرجه أبو داود وغيره « ذو الوجهين وذو اللسانين فى النار »

ومن أمثلته كذلك قول البحترى يصف الابل التى أنحلها السير :

كالقسى المعطفات بل الأ   سهم مبرية بل الأوتار

فانه لما شبه الابل بالقسى فى الرقة والانحناء وأراد تكرير التشبيه كان يمكنه التشبيه بالعراجين ونون الخط لوجود ذلك فيها ، لكنه آثر الأسهم والأوتار لمناسبة لفظ القسى .

---

(٣١) النظير فى اللغة : المثل ، جمعها نظراء ، وأصله المناظر كأن كل واحد منهما ينظر الى صاحبه فيباريه . راجع بصائر ذوى التمييز ٨٤/٥ .

(٣٢) يوسف ٨٥ .

التناسب بين الكلمة ومعناها :

قلنا ان التنـاسب يكون بين الكلمة والكلمة وما مضى من الأمثلة والشواهد كان بسطا لهذا التناسب •

وقلنا ان التناسب يكون بين الكلمة ومعناها وتراث لغتنـا العربية حافل بمذخور من القول أبدى فيه الطبع الأصيل صورا بيانية اختير لظهرها من الألفاظ ما يربط بينه وبين معناه وشيج العلائق ومتـلاحم النسج •

هذا زهير بن أبى سلمى — فى معلقته — يصور تدارك الحارث ابن عوف الشر المسـتطير الذى جناه على ذبيان الحصـين بن ضمضم ، وملخص هذه القصة أن رجلا من بنى عبس قتل أخا للحصين قبل صلح عبس وذبيان ، فلما تم الصلح بينهما أضمر الحصين بن ضمضم الأخذ بثأر أخيه بقتل قاتل أخيه أو بقتل رجل من أهله الى أن لقى رجلا من عبس فشد عليه وقتله ، واعتمـد على أن يناصره ألف فارس من قومه اذا غضبت عبس لقتيلها ، وثارت عبس وتدارك الحارث بن عوف الشر فدفع لعبس مائة من الابل دية للقتيل وتم الصلح بين عبس وذبيان(٣٣)

يصور زهير بن أبى سلمى هذه القصة تصويرا يعتمد الألفـاظ وسيلة تصويره الآكد الآجدى فيقول :

لعمـــرى لنعم الحى جر عليهم
بما لا يؤاتيهم حصـين بن ضمضم
وكان طوى كشحا على مسـتكنة
فلا هو أبداها ولم يتجمجـم (٣٤)

---

(٣٣) المنتخب من أدب العرب ١٥ •
(٣٤) يروى هذا البيت فى رواية أخرى هكذا •

=

وقال سأقضى حـــاجتى ثم أتقى
عــدوى بألف من ورائى ملجــم

فشد ولم تفــزع بيوت كثــيرة
لدى حيث ألقت رحلهــا أم قشعم

لدى أسد شاكى الســـلاح مقذف
له لبــد أظفـــاره لم تقــلم

جرىء متى يظلم يعاقب بظلمـــه
سريعــا والا يبد بالظلم يظـــلم

رعوا ما رعوا من ظمئهم ثم أوردوا
غمــارا تسيل بالرمـــاح وبالدم

فقضوا منايا بينهم ثم أصــدروا
الى كــلأ مســـتوبل متوخم

لعمــرك ما جــرت عليهم رماحهم
دم ابن نهيك أو قتيـــل المثــلم

ولا شاركوا فى القوم فى دم نوفل
ولا وهب منهم ولا ابن المخـــزم

=

وكان طوى كشحا على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتقدم

بوضع كلمة (يتقدم) موضع (يتجمجم) وربما كان الرواية التى أثبتناها أولى ، لمناسبة كلمة (يتجمجم) لقوله قبلها (فلا هو أبداها) ذلك أن من معـــانى الجمجمة اخفاء الشىء فى الصدر وعـدم الابانة عنه (انظر لسان العرب ١٢/١٠٩/١١٠) .

فكلا أراهم أصبحوا يعقلـونه
علالة ألف بعـد ألف مصتم

تساق الى قوم لقـوم غرامة
صحيحات مـال طالعات بمخرم

لدى حلال يعصم النـاس أمرهم
اذا طلعت احـدى الليالى بمعظم

كرام ، فلا ذو الوتر يـدرك وتره
لديهم ولا الجـانى عليهم بمسـلم

انظر الى ايثار القسم بصيغة (لعمرى) وهى صيغة مأخوذة من العمر الذى هو عمارة البدن بالروح(٣٥) ، وفى هذا الايثار ايحـاء بأن ما كان من الحارث بن عوف انما كان من أجل أن تحقن الدمـاء وتأمن العشائر فتطول تلك العمارة .

فبين لفظ القسم وبين معناه وبين الغرض الذى سيق من أجله الكلام كله أخلص العلائق وأوثق العـرى ، تحس ذلك من أول وهلة وعند وقوع بصرك على أول كلمة فى أبيات القصة .

ثم انظر الى قـوله بما لا يؤاتيهم ــ بمعنى بما لا يوافقهم ــ والتعبيران من حيث الوزن العروضى متساويان لو أن الشاعر استعمل لم النافية بدلا من لا فقال بمـا لم يوافقهم ، ولكن أين اسـتعمال (يوافقهم) من استعمال (يؤاتيهم) من حيث الظلال التى تلقى بها كلمة (بما لا يؤاتيهم) انها لا تدل على مجرد عـدم الموافقة بل تدل

---

(٣٥) انظر بصائر ذوى التمييز ٤/١٠٠ .

على عدم موافقة فيها قطع النعم وسوء للمطاوعة ــ وفى الحديث الشريف « خير النساء المواتية لزوجها »(٣٦) أى الموافقة له موافقــة تجلب السرور وتدفع الغابة والشرور وليس مجرد طاعة جوفاء صماء •

وعند تعبير زهير عن تبييت نية الانتقام جاء بما يدل على عمق ما طويت عليــه النفس ، انه ليس تبييت تحدث به النفس صــاحبها ولكنه طى لا يظهر من خلاله شئ على الرغم مما يتخلل الطيات من مخبوء مكنون •

وعلام طوى الكشح ؟ انه طوى على مستكنة مستترة • وما أكثر ما يستكن فى داخل النفس ولكن نفس الحصين بن ضمضم خلت من كل شئ يمكن أن تنطوى عليه نفس الا شيئا واحدا هو الانتقام من قاتل أخيــه ، كأن أمانيه وآماله وآلامه وأهــواءه ونوازعه وأفكاره وعواطفه كلها قد اختصرت واختزلت وصارت شيئا واحدا لا ثانى له هو اضمار قتل قاتل أخيه •

هذه الظلال انساحت على المعنى يرفدها من ورائها قوله « وكان طوى كشحا على مستكنة » •

انظر الى كلمــة (كان) وما ترفــد به تلك الظلال من امتــداد المساحة الزمنية للتبييت حتى كأنه لا تعلم له بداية ، وانظر الى كلمة طوى وما تلقيه على تلك الظلال من أن التبييت تكرر استغراق الحصين فيه وانهماكه معه حتى كأنه كل لحظة يضيف الى نية الانتقام نيــة أخرى أشد منها فتطوى ما سبقها ثم لا تلبث أن تطوى هى بما لحقها، لكأنه ليس أمام العزم على اقتراف شئ واحد وانما تعدد هذا الشئ

---

(٣٦) انظر اللسان مادة أتى •

فصار أشياء بعضا يلى بعضا . وبعضها يضمر فى بعض ، وانظر الى كلمة (كشــحا) وما فى جرسها من ايحاء بالمقت والكراهية وما يرمى به معناها من بغضاء لا يذهب بلهيبها صــلح ولا ينهض بعلاج آثارها مال،انه الاعراض عن الود والوفاق،انه الادبار حيث القوم مقبلون .

ولقد ضاعف من لهيب ما انطوت عليه نفس الحصين انه بيت ما بيت ونوى ما نوى دون أن يحدث بذلك أو يؤامر فيه أحدا ، وما أشد نار الشر حين تستوطن نفسا تستعيض عن الأهل والخلان وكل خلق الله بعالم آخر من صنعها هى عالم زاخر بما لا تراه العين ولا تمشى اليه القدم ، عالم يرخى على الباصرة غشاوة ويسلب الرجل عقله ولبه، عالم موطنه النفس ومسترداه القلب .

كل هذه معان سار بنا اليها ذلك اللفظ (يتجمجم) فمن معــانى الجمجمة (اخفاء الشىء فى الصدر وعدم الابانة عنه) .

وقد أجاد الشاعر حين ذكر أن تلك النية المبيتة وافقها عمل متقن وتنفيذ بصير فظفر الحصين بقاتل أخيه ظفرا ناجحا حيث انه ســاير نيته التى صارت لفرط قوتها نيات سايرها حتى اذا كانا فى المكان الذى لا تخطىء فيه المنية صاحبها باشر أسبابها .

انه سار مع نياته حتى وقعت به على واتره فى منزل (أم قشعم) ولقد ساست هذه النيات خطاه وسددت ضرباته (فشد ولم تفــزع بيوت كثيرة) لم تفزع ببيوت عبس ، لأن التنفيذ كان من الاحــكام بحيث يحقق الوطر من غير جلبة ولا تخبط .

وانظر الى كلمة (شد) وما يصاحبها من الظلال وانظر الى قطع هذا الفعل عن متعلقه ، فهو ما شد على العبسى أو على قبيلته هو شد فقط ، أما من المشدود عليه فعلمه أغنى من أن يدل عليه بلفظ .

ثم انظر الى ذكره تحقق موت المشدود عليه بتلك العبارة الضاربة فى أرواق الحزن المتغلغلة فى تلافيف الهلك والبوار « حيث ألقت رحلها أم قشعم » ، وعندما وصف حصينا بالقوة بالغ فى تأكيد اتصافه بهذه الصفةفجعله أسدا قويا له قوتان قوة تنبع من داخله والدال عليها لفظ (أسد)وقوة أخرى أمده بها سلاحقوى بتار،وانظر الى(شاكى السلاح) وما تلقيه من ظلال تمام التسلح وقوة هذا السلاح ـ فشاك مأخـوذ من الشوكة وهى القوة التى لا تكون الا من جسور .

ثم انظر الى ما كان من نسق فى التعبير حيث وصف (أســدا) وهو نكرة بشاكى السلاح وهــو مضاف الى معرف بأل — ومع أن اضافته لفظية الا أن بناء السلاح على شاك لا يخلو من نوع ايحـاء بالقوة المفرطة ثم انظر الى كلمة (مقذف) بالتضعيف وكذلك الاتيـان بلفظ (لبد) جمعا مع أنهما لبدتان للأسد ليس غير .

ثم تأمل البيت السابع تجده يصور أن القبيلتين عبس وذبيـان ثابوا الى خطة سلام نعموا بها فترة من الزمن كانت لحسنها وأمنهـا كأنها ما لا يحصى من الزمان (رعوا ما رعوا) ولقد أوحى بطول هذه المدة الاتيان بما المصدرية الظرفية التى متى استعملت دلت على مساحة من الزمن طويلة ممتدة وأخيرا جاء العطف بثم وما يكتنفه من التراخى الممدود فى حبله (ثم أوردوا غمارا) عاودوا الوقائع كما تورد الابل بعد الرعى ، فالحروب بمنزلة الغمار ويا لها من غمار انها غمـار من دماء تسيل بها الوديـان ثم يا للمنـايا التى تقضت وأتمت وأحكمت ويا لمرارة ذلك الكلأ غير المستمرأ المتوخم الوبيل .

وهكذا تجد فى بقية الأبيات ما يناسب فيه اللفظ المعنى حتى لكأن الكلمة تصور المعنى محسوسا ولا تدل عليه دلالة .

ومن بليغ ما ناسب فيه اللفظ المعنى حديث سيدنا رسول الله —

صلى الله عليه وسلم ـ «اللهم واقية كواقية الوليد»(٣٧) فان التعبير باسم الفاعل « واقية » دون أن يعبر بالمصدر وقاية له من المناسبة بين اللفظ والمعنى ماله ، ذلك أن المدعو به ليس مطلق وقاية وانما هو وقاية قائمة متلبسة بذات،هى واقية وليست وقاية فكأن المطلوب المدعو به ماثل أمام العين تراه قائما حارسا نابها متحركا متيقظا لا يترك خلسة لعدو يمكن أن يتسلل منها وهكذا حفظ الله وعنايته اذا لاحظت أحدا كفته مؤنة البحث عن الأمان :

واذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

ومما ناسب فيه اللفظ المعنى ـ أيضا ـ قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الحياء نظام الايمان »(٣٨) فانك واجد لكلمة (نظام) من ادراك الغاية واصابة المفصل ما لا يمكن لعبارتنا ـ وهى كثيرا ما تكدى ـ أن توفيه حقه من التجلية والابانة ، ولعل أقرب ما يهتدى اليه مثلى فيما تشى به هذه الكلمة من المناسبة أنها جعلت شعب الايمان من صدق وصلة وتواصل وتعاطف وتباذل وصلاة وصيام وحج وصدقة وقيام واعتمار لكى تحقق الغاية المرجوة منها منظومة فى خيط منضودة فى سلك هو الحياء ، وما الحياء الا انقباض النفس عن القبائح وعن التفريط فى حق صاحب الحق .

وكل أمر تعبدى لا يكون له سلطان على النفس يدفعها الى الفضائل ويمنعها من الرذائل فهو مجاف للهدف الذى من أجله كان «ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » « من حج فلم يرفث

---

(٣٧) أخرجه أبو يعلى فى مسنده عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ (الفتح الكبير) راجع بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ٥/٢٧٨ .

(٣٨) انظر المجازات النبوية للشريف الرضى ١٠٥ .

ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » كل هذا يرمى فى يقيننا أن المؤمن الكامل لا يظهر أعماله الايمانية أمام غيره الا الحياء فكأنها حبات عقد لا يكمل جمالها الا بنظمها فى سلك الحياء(٣٩) .

وقد بذل العلامة مصطفى صادق الرافعى ـ يرحمه الله ـ جهدا مشكورا فى هذا المجال فذكر أن لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نصيبا أوفى فى علم الوضع ـ ليس وضع المفردات ـ ولكنه ـ كما سماه ـ يرحمه الله ـ الوضع التركيبى ، يعنى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتى بتراكيب ما كان للعرب علم بها قبله ـ عليه السلام

من ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « مات حتف أنفه » أى على فراشه ، قال فى القاموس « وخص الأنف ، لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه ، وقال فى النهاية كانوا يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه فان جرح خرجت من جراحته وكل ذلك تحتمله العبارة غير أن لها رأيا آخر وهو أن موت الرجل على فراشه من غير حرب ولا قتال ولا أمر يؤرخ به الموت فى الألسنة مما كانوا يأنفون له والحتف هو الهلاك،فكأن صاحب هذه الميتة انما ماتت أنفته وكبرياؤه، فلم يرفع الموت أنفه فى القوم ، بل أذله وأرغمه فكان به هلاكه ، لأن حياته كانت فى عزته ، وعزته كانت فى أنفه ، وأنفه هو الذى كبه الموت، وانما مجاز العبارة كما يقال فى الكبر (ورم أنفه) ، وفى العزة (حمى أنفه) ، وفى الدفاع عن الأم (غضب لمطالب أنفه) وكما يقال (غضبه على طرف الأنف) اذا كان سريع الغضب (وجعل أنفه فى قفاه) اذا ضل ، ونحو ذلك مما يكثر فى كلامهم(٤٠) .

ومن ذلك ـ أيضا ـ قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «هذه مكة

---

(٣٩) انظر بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ٢/١٥، وما بعدها .

(٤٠) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ٣١٥ ، ٣١٦ .

قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها »(٤١) انظر الى ايثار كلمة « أفلاذ » على ما سواها ولو أسهرت الليل وأنصبت النهار باحثا عن كلمة تغنى

(٤١) جاء فى سيرة ابن هشام أن النبى – صلى الله عليه وسلم – ابان استعداده لغزوة بدر ، وبعد خروجه من المدينة واستيثاقه من صدق نية أصحابه المهاجرين والأنصار بعث على بن أبى طالب كرم الله وجهه – والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص – رضى الله عنهم – فى نفر من أصحابه الى ماء بدر يلتمسون الخبر له – عليه السلام – فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم غلام بنى الحجاج ، وعريض أبو يسار غلام بنى العاص بن سعيد فأتوا بهما فسألوهما ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – قائم يصلى فقالا نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبى سفيان فضربوهما فلما أذلقوهما قالا : نحن لأبى سفيان فتركوهما ، وركع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسجد سجدتيه ثم سلم ، وقال : اذا صدقاكم ضربتموهما ، واذا كذباكم تركتموهما ، صدقا ، والله انهما لقريش ، أخبرانى عن قريش ؟ قالا : هم والله وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى . فقال لهما رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كم القوم ؟ قالا : كثير . قال : ما عدتهم ؟ قالا : لاندرى قال : كم ينحرون كل يوم؟ قالا : يوما تسعا ويوما عشرا . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – القوم فيما بين التسعمائة والألف . ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبه بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وأبو البخترى ابن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ابن نوفل ، وطعيمة بن عدى بن نوفل والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل ابن عمرو ،وعمرو بن عبدود ، فأقبل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها (سيرة ابن هشام ٢/١٨٩) .

غناءها ما وقعت عـلى طلبتك . وأنى لك ذلك وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ لعلى بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ وقد سمعه يخاطب وفد بنى نهد « يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، فقال ـ عليه الصـلاة والسلام ـ أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

ان كلمة « أفلاذ » فى موضعها من الحديث لتلقى من المعانى ما لا يفى بحقه فصل فى كتاب بل كتاب ، انها توحى بأن قريشا أرسلت اليه أهل البأس فيها الذين هم فى الناس محوطون محتفى بهم كأنهم الكبد تحيط به الضلوع انهم صميم قريش ولبابها ، انهم قلبها(٤٢) ومدبرو أمرها .

قال الشريف الرضى « ولهذا الكلام معنيان : أحـدهما أن يكون المراد به أن هؤلاء المعدودين صميم قريش ومحضها ولبابها وسرها ، كما يقول القائل منهم فلان قلب فى بنى فلان اذا كان من صرحائهم وفى النضار من أحسابهم ، فيجـوز أن يكون المراد بالكبد هنا كالمراد بالقلب هناك .

والمعنى الآخر أن يكون المـراد بذلك أعيان القوم ورؤسـاءهم والعرانين المتقدمة منهم فكأنه عليه الصلاة والسلام أقام مكة مقـام الحشا التى تجمع هـذه الأعضاء الشريفـة كالقلب والنياط والكبـد والفؤاد . وجعل رجال قريش كشعب الكبد التى تحنو عليها الأضالع، وتشتمل عليها الجوانح وقاية لها ورفرفة عليها(٤٣) .

---

(٤٢) كثيرا ما يطلق الكبد على القلب . قال : قائلهم .

كأن قطـاة علقت بجناحها على كبدى من شـدة الخفقان

انظر المجازات النبوية ١٤ .

(٤٣) السابق فى الصفحة نفسها وانظر ٣٢٨ ـ ٣٣١ من هذا الكتاب

والمثل فى ذلك القرآن الكريم فانه القول الذى لا يطمع فى مثله، لأنه المعجز الذى ما ان تقرأ الآية منه حتى تراها قد خرجت من حد المألوف وانسلت منه وفاتت سمت ما قدرت عليه لها من مطلع ومقطع، فمهما وجدت لا تجد سبيلا الى حدها ، ومهما استطعت لا تستطيع أن تقرن بها كلاما تعرف حده فى البلاغة ان لم تكن بالصنعة فبالحس .

قرأت آخر سورة الكهف ووقفت مأخوذا بالبلاغة القرآنية أمام قوله تعالى « فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا »(٤٤) .

حيث ان الصعود فوق سد يأجوج ومأجوج والظهور عليه ــ وان كان أمرا غير مقدور عليه الا أن له فى باب الاستطاعة ما ليس لنقبه ومحاولة احداث الأثر فيــه ، ولذا جاء مع الأمر الذى للامكان فيــه مدخل بالفعل « اسطاعوا » محــذوف التاء ، وجاء فى الأمــر الذى لا امكان له بالفعل (استطاعوا) فكان فارق ما بين الكلمتين نطقا هو فارق ما بين الحــدثين وجودا وامكانا ــ وما كان لشىء من ذلك أن يحدث الا أن يشاء الله .

كما وقفت أمام قوله ــ تعالى ــ « فاذا جاء وعد ربى جعلــه دكاء »(٤٥) فوجدت أن كلمة «دكاء» بالهمزة الممدودة تلقى على المعنى ظلالا تناسب مجىء وعد القوى ــ عز وجل ــ اذ الكلمة موحية بأن ذلك البناء الشامخ القوى عند تحقق مجىء وعد الله وأمره لا يصير أنقاضا متهاوية متهالكة وانما يؤول أمره فى الانسحاق الى ما يشبه مادة الطــرق المرصوفة ــ فى حياتنا الحاضرة ــ طمرت أجزاؤها بعــد أن رضتها الآلات رضا جعل الأرض تغوص بها الى ما لا يعلم الا الله،فكأن كلمة (دكاء) وقد امتد بنطقها النفس تصور المعنى المفاد منها تصويرا

---

(٤٤) الكهف ٩٧ . (٤٥) الكهف ٩٨ .

حسيا ، تصوره صورة صنعتها مادة الكلمة ولم يقم بذلك تشبيه ولا استعارة ولا تمثيل ، وكان بين الكلمة مادة وصوتا ومعنى مناسبة أى مناسبة •

واذا تركت هذا الموضع وانتقل بك السياق القرآنى الى قول الحق — تبارك وتعالى — «وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض» (٤٦) رأيت تدافع المتحدث عنهم واضطرابهم وانعدام ارادتهم وهول معاناتهم وسرعة الانتقال بهم من حال الى حال فهم فى ومضة من البصر على السطح مستوى بهم وفى ومضة ثانية على جنوبهم منقلبون وفى ثالثة على رءوسهم منكبون •

ان كلمة « يموج » أعطت بمادتها صورة مرئية مشاهدة لمعنى التدافع والاضطراب ما كان ليقوم بها العديد من الألفاظ والتراكيب •

وانظر الى قوله تعالى «وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا» (٤٧) تجد كلمة عرضنا توحى بصف الكافرين وايقافهم ساكنين بعد ما كانوا مائجين وفى هذا ما يدل على تمام استكانتهم واستسلامهم • ولماذا صفوا وأوقفوا ؟ لتمر جهنم أمامهم فتتعرف عليهم ويعرف كل منهم مكانه فيها ، تقول : عرضت الجيش عرض عين اذا أمررته على بصرك لتعرف من غاب ومن حضر (٤٨) — فبين عرضنا وبين المعنى الذى يفهم منه مناسبة أى مناسبة •

لقد صف الكافرون لترى عيونهم النار ولتتعرف النار عليهم حتى يحدث بينهم الالتحام الوبيل •

---

(٤٦) الكهف ٩٩ •

(٤٧) الكهف ١٠٠ •

(٤٨) البصائر ٤/٤٤ •

رأوا بعيونهم — تلك العيون التى كانت فى غطاء عن ذكر الله » انها لم تكن مغطاة بل كانت فى غطاء ظرفها من جميع أقطارها وسد عليها المنافذ سدا محكما فمـا يتسرب اليها أقل القليل ممـا ينبغى أن يرى •

وهذا تصوير معجز لشدة اعراضهم عن ذكر الله — عز وجل — فى الحياة الدنيا نهضت به كلمة (فى) وحدها •

فاذا ما انتقل بك سياق الآية الى الآية التى تليها « أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء انا اعتـدنا جهنم للكافرين نزلا »(٤٩) قف عند قوله — تعالى — (أعتدنا) تجد فيه ما يدل على شدة ما هيىء وجهز وأعد لهؤلاء الذين كفروا ، حقق — أن أردت — الفرق بين أعتدنا وأعددنا تجد أعتـدنا أصله أعددنا أبدل من اخـذ الدالين تاء — كما قال بعض أهـل العلم(٥٠) — وفرق ما بين الدال والتاء أن الدال مجهورة والتاء مهموسة والانتقال من الهمس الى الجهر فى (أعتدنا) يناسب حال المعذبين بالنار ، اذ انهم دلوا على ما يهيىء لهم الجنة ، دلوا عليـه دلالة حثيثة من شـأنها أن تسرى فى حنـايا نفوسهم فصموا دونها الآذان وغلقوا دونها الأفئدة فاستحقوا النـار التى تكاد تميز من الغيظ » وجهر فى آذانهم « ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنـا ما نزل الله من شىء ان أنتم الا فى ضلال كبير وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السـعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير » •

---

(٤٩) الكهف ١٠٢ •

(٥٠) البصـائر ١٨/٤ •

ولقد استعرضت آى القرآن الكريم فوجدت أن « أعتدنا » لم يستعمل فى اعداد النعيم الا مرة واحدة فى قوله تعالى « ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما »(٥١) وجاء ثنتى عشرة مرة مستعملا(٥٢) فى اعداد العذاب للكافرين والظالمين والذين لا يؤمنون بالآخرة والذين كذبوا بالساعة والشياطين .

ولعل السبب فى الاتيان بلفظ (أعتدنا) مستعملا فى الوعد بالنعيم — والله أعلم — فى آية الأحزاب السالف ذكرها « ومن يقنت منكن لله ورسوله ... الآية » .

ان الآية تمثل جزءا من موقف كان فى أول أمره همسا بين نساء النبى بعضهن مع بعض ثم كان بينهن وبين النبى — صلى الله عليه وسلم — ثم آل الأمر فى نهاية المطاف الى اعلان جهورى الصوت صادر عن أمهات المؤمنين الواحدة تلو الأخرى بأنهن رضين شظف العيش مع النبى — عليه السلام — واخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

امتحان قوى تعرض له أمهات المؤمنين — رضى الله عنهن — فقد ذكرت كتب الحديث أن أبا بكر — رضى الله عنه — أقبل يستأذن على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والناس ببابه جلوس والنبى — صلى الله عليه وسلم — جالس فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر — رضى الله عنه — فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبى بكر وعمر — رضى الله عنهما — فدخلا والنبى — صلى الله عليه وسلم — جالس وحوله نساؤه وهو — صلى الله عليه وسلم — ساكت فقال عمر — رضى

---

(٥١) الأحزاب ٣١ .

(٥٢) المعجم المفهرس لألفاظ ٤٤٥ .

الله عنه — لأكلمن النبى — صلى الله عليه وسلم — لعله يضحك فقال عمر — رضى الله عنه — يا رسـول الله لو رأيت ابنة زيد — امرأة عمر — سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها فضحك النبى — صلى الله عليه وسلم — حتى بدت نواجذه وقال «هن حولى يسألننى النفقة» فقام أبو بكر — رضى الله عنه — الى عائشـة ليضربها وقام عمر — رضى الله عنه — الى حفصة كلاهما يقولان : تسألان النبى — صلى الله عليه وسلم — ما ليس عنده فنهاهما رسول الله — صلى الله عليه وسلم فقلن والله لا نسأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعد هذا المجلس ما ليس عنده • قال : وانزل الله — عز وجل الخيار فبدأ بعائشة — رضى الله عنها — فقال : انى اذكر لك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك قالت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها « يا أيها النبى قل لأزواجك •••• الآية » •

قالت عائشة — رضى الله عنها — أفيك أستأمر أبوى ؟ بل اختار الله تعالى ورسوله وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت فقال صلى الله عليه وسلم — « ان الله لم يبعثنى معنفا ولكن بعثنى معلما ميسرا ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت الا أخبرتها »(٥٣) •

ثم عقب ذلك بوعظهن من قبل ربهن بقوله تعالى « يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا »(٥٤) •

ثم على عادة القرآن من انه يأتى بالتحلية بعد التخلية جاء قوله تعالى « ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقا كريما » •

---

(٥٣) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٣/٤٨١ •
(٥٤) الأحزاب ٣٠ •

فما أعد لهن من النعيم والكرامة شيء اختصصن به ، وليس نعيما كذلك النعيم العادى الذى وعد به غيرهن من أهل الجنة عامة فانهن فى الجنة فى منازل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى أعلى عليين فوق منازل جميع الخلائق فى الوسيلة التى هى أقرب منازل الجنة الى العرش(٥٥) .

وهكذا ترى أن نساء النبى لما كان ما وعدن به شيئا خاصا بهن مقصورا عليهن اختص بيانه فى كتاب الله بأنه « أعتد » ولم « يعدد » كما أعد غيره(٥٦) .

ومن دقيق ما ناسب فيه اللفظ معناه فى كتاب الله — عز وجل — لفظ (مؤمن) فى قوله تعالى « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين »(٥٧) أوثر لفظ (مؤمن) على لفظ مصدق مع أن ذكره يحقق للكلام جناسا ، لأن فى « مؤمن » من المعنى ما ليس فى مصدق،ذلك أن الايمان تصديق الا أنه ليس تصديقا غفلا مجردا وانما هو تصديق فيه أمن وطمأنينة وراحة ، ونبى الله يعقوب — عليه السلام — لايملك الا أن يصدق كلامهم لكنه التصديق الخالى من الطمأنينة الخالى من الراحة الخالى من تمام الركون الى ما ذكروا ولذلك لم يستطع الا أن يقول كما حكى القرآن الكريم « بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون »(٥٨) .

---

(٥٥) ابن كثير ٣/٤٨٢ .

(٥٦) لاحظ معى أن لفظ أعد جاء مبنيا للفاعل فى القرآن الكريم أربع عشرة مرة مستعملا فى بعضها للنعيم وفى بعضها للجحيم كما جاء مبنيا للمفعول أربع مرات مستعملا فى بعضها للنعيم وفى بعضها للجحيم أيضا . (المعجم المفهرس ٤٤٧) .

(٥٧) يوسف ١٧ .

(٥٨) يوسف ١٨ .

ومن آكد ما طابق فيه اللفظ معناه استعمال مادة (وذر) بمعنى الترك فان الفعل (يذر) وما يمكن أن يتصرف منه ليس مساويا ليترك بل فيه زيادة انه ترك مهين(٥٩) •

ولقد كثر ورود هذه المادة فى القرآن الكريم ، وحيث وردت ففيها ترك شىء دون أدنى التفات اليه أو تفكير فى مصيره •

اقرأ قوله تعالى : « ثم ننجى الذين اتقــوا ونذر الظالمين فيها جثيا »(٦٠) انه ليس مجرد ترك ولكنه الترك الذى لا يكون للمتروك فيه أى مساحة من عزة أو عطف أو التفات •

وكذلك الحال فى معنى قوله — تعالى — والله أعلم « ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا ، فيذرها قاعا صفصفا »(٦١) •

وفى قوله تعالى « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا »(٦٢) •

اشارة الى ما تعانيه الأيم من انكسار وحزن نفسى يبدو عــلى مظهرها وهى متربصة بنفسها أربعة أشــهر وعشرا لا يبدو على وجهها ولا على مظهرها أية مسحة لسرور أو زينة فهى كالوذرة التى لا مطمع فيها لآكل •

وهكذا حيثما وجدت هذا اللفظ وجدته موحيا هذا الايحاء •

وقد استعرضت آى القــرآن الكريم فوافقت نتيجة الاستعراض ما سبق تقريره الا فى :

---

(٥٩) راجع القاموس المحيط ١٥٨/٢ •
(٦٠) مريم ٧٢ •
(٦١) طـه ١٠٥ ، ١٠٦ •
(٦٢) البقرة ٢٣٤ •

« أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ، الله ربكم ورب آبائكم الأولين »(٦٣) .

وفي « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون »(٦٤) .

وفي « وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا »(٦٥) .
وفي « ذرني ومن خلقت وحيدا »(٦٦) .

ففي آية الصافات جاء الفعل للدلالة على ما كانوا عليه من اهتمام كبير (ببعل) وتركهم ربهم أحسن الخالقين ، فدلالة (تذرون) ليس للمعنى المفاد منه مطلقا وانما بالنسبة لما كانوا هم عليه فهو تصوير لحالهم مع هذا الصنم ، لقد اهتموا به اهتماما ينبيء عن انهم لا يلقون أدنى بال الى ما وراءه ، لقد كان غيرهم يقولون — وهم مشركون أيضا — « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » أما هؤلاء فقد جعلوا كل همهم التعبدي موجها الى بعل وتركوا — غير مبالين — عبادة أحسن الخالقين الله ربهم ورب آبائهم الأولين .

لقد كان بعل من ذهب وكان طوله عشرين ذراعا له أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياءه فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وهم أهل بعلبك من بلاد الشام وبه سميت مدينتهم بعلبك(٦٧) .

---

(٦٣) الصافات ١٢٥ ، ١٢٦ .
(٦٤) القلم ٤٤ .
(٦٥) المزمل ١١ .
(٦٦) المدثر ١١ .
(٦٧) الكشاف ٣/٣٥٢ .

وأما ثلاث الآيات : آية نون ، وآية المزمل ، وآية المدثر فالأمر فيها يدور على تصوير شدة هول ما يلاقى المتحدث عنهم فى الآيات الثلاث . كيف حالهم وقد تركوا وجها لوجه مع القوى الجبار،فالفعل على بابه أيضا — تقول العرب :

(ذرنى وإياه يريدون كله الى فانى أكفيكه كأنه يقول : حسبك ايقاعا به أن تكل أمره الى وتخلى بينى وبينه ، فانى عالم بما يجب أن يفعل به مطيق له ، والمراد حسبى مجازيا لمن يكذب بالقرآن فلا تشغل قلبك بشأنه وتوكل على فى الانتقام منه ، تسلية لرسول الله وتهديدا للمكذبين »(٦٨) وهو تهديد مزلزل ، الجبار القهار القوى المتين هو الذى يقول للرسول — صلى الله عليه وسلم — خل بينى وبين من يكذب بهذا الحديث وذرنى لحربه فأنا به كفيل ومن هو هذا الذى يكذب بهذا الحديث انه ذلك المخلوق الصغير الهزيل المسكين الضعيف ، هذه النملة المضعوفة بل هذه الهباءة المنثورة ، بل هذا العدم الذى لا يعنى شيئا أمام جبروت القهار العظيم فيا محمد خل بينى وبين هذا المخلوق ، واسترح أنت ومن معك من المؤمنين فالحرب معى لامعك ولا مع المؤمنين الحرب معى وهذا المخلوق عدوى ، وأنا سأتولى أمره فدعه لى وذرنى معه واذهب أنت ومن معك فاستريحوا .

أى هول مزلزل للمكذبين ، وأى طمأنينة للنبى والمؤمنين المستضعفين ثم يكشف لهم الجبار القهار عن خطة الحرب مع هذا المخلوق الهزيل الصغير الضعيف « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم ان كيدى متين »(٦٩) .

---

(٦٨) الكشاف ١٤٧/٤ .
(٦٩) فى ظلال القرآن ٣٦٦٨/٤ .

وقل مثل هذا فى آيتى المزمل والمدثر . والحظ أن الفعل فعل أمر والآمر به هو الذى عداه الى نفسه وفى ذلك من التحدى ما فيه وهكذا القرآن الكريم يتخير لما يتناوله من شئون القول أشرف المواد ، وأمسها رحما بالمعنى المراد وأجمعها للشــوارد وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة فى موضعها الذى هو أحق بها وهى أحق به ، بحيث لا يجد المعنى فى لفظه الا مرآته الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولا يجد اللفظ فى معناه الا وطنه الأمين ، وقراره المكين ، لا يوما أو بعض يوم بل على أن تذهب العصور وتجىء العصور ، فلا المكان يريد بساكنه بدلا، ولا الساكن يبغى عن منــزله حولا ، وعلى الجمــلة يجيئك من هذا الاسلوب بما هو المثل الأعلى فى صناعة البيان(٧٠) وتأمل ان شئت المناسبة الوطيدة بين اللفظ والمعنى وما يلقى به اللفظ من ظلال على المعنى فى قوله تعالى « انا نخــاف من ربنا يوما عبوسا قمطــريرا فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا » وقف عند نخاف ولم أوثر على تخشى فاليوم يوم لا يحيط بما يكون فيه علما الا الله ــ عز وجل ــ فالتوجس خوف وليس خشية ، ذلك أن الخشية للعالم ، والخوف للعالم وغير العالم « انما يخشى الله من عباده العلماء »(٧١) لكن الذين يقولون « انا نخاف من ربنا هم الذين يطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، ويقولون لمن يطعمونهم طعامهم لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » .

فهم وان كانوا لا يحيطون بما يكون فى يوم القيامة علما يعلمون أنهم فى هذا اليوم أمام رب رحيم ولذلك جــاء لفظ « من ربنـــا » الموحى بالتعهد والرعاية وايصال الشىء الى كماله وجماله وجلاله،وما

---

(٧٠) النبأ العظيم ٩٢ .

(٧١) فاطر ٢٨ .

وما كان لمثل هذه الظلال أن ترف لو وضع ـ فى غير القرآن ـ (الهنا) بدل ربنا .

ثم انظر كلمة العبوس والقمطرير الذى يريد أهل الاحسان النجاة منه وما وضع مقابلا له من النضرة والسرور والجنة والحرير

صورة نسج خيوطها تلك الألفاظ التى طوبق بينها وبين المعنى بحيث تخال المعانى أجساما محسوسة مرئية والألفاظ هيئات نفسية لها فى العقل والقلب مثوى ومستراد .

وهذا ميدان فسيح تكلم العلماء فيه وأكثروا وأتوا فيه بالفرائد والقلائد وما قصدت حين تعرضت لما تعرضت له أن أنافس العلماء وأشاركهم مجدهم فأنى لمثلى ذلك ، وحسبى ألا يعدنى أهل العلم وأنا أحضر مآدبهم متطفلا .

التناسب بين المعنى والمعنى :

هذا باب عظيم القدر جليل المأخذ،ذلك أن المعانى مطروحة فى الطريق وانما الشأن فى جودة النسج وحسن السبك ، وجعل المعانى متراسلة يراعى آخرها أولها من السبك قل أن يقف عليه الا من تمرس على بلاغة العربية وتمثلها بحيث تصبح جارية منه مجرى النفس .

والمثل فى ذلك القرآن الكريم فان مناسبة المعنى للمعنى فيه مرعية فى جميع آيه،ولقد اخترت سورة من سوره ذكر الحديث الشريف أنها نزلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جملة واحدة(٧٢) هى سورة الأنعام .

---

(٧٢) انظر فى ظلال القرآن ٢/١٠٢٢ . وكون سورة الأنعام نزلت جملة واحدة هو أرجح الأقوال ـ والله أعلم .

ومطلع السورة « الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون »(٧٣) وهو مطلع متسق مع الغرض الذى جاءت السورة لتقريره وهو قضية الألوهية والعبودية، والسورة تحشد لتقرير هذا الغرض مثيرات عقلية وفكرية تشمل التأمل فى الحياة بأنواعها ، بادئة بالحياة النامية التى هى قدر مشترك بين الموجودات جميعها حيوانها ونباتها بل وجمادها (٧٤) ثم الحياة الحساسة وهى الشاملة للحيوان والنبات ، ثم الحياة المفكرة العاقلة الخاصة بالانسان •

من تأمل الحياة وجدها ناطقة بوجود اله واحد لا مستحق للعبادة غيره — عز وجل — هو المحمود والحمد له — الحمد لله — ثم ذكر مناحى التأمل ، ثم ختم الآية بقوله تعالى « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » وذكر « يعدلون » دون «يشركون» مع أن كثيرا من المشركين لم يعدلوا عن عبادة الله — عز وجل — عدولا كاملا بل عبدوا ما عبدوا وهم يتخذون ما عبدوه واسطة بينهم وبين الله — عز وجل — الواحد الأحد«ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار »(٧٥) ليدل على أن الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور يجب ألا يشرك معه أحد ، فمن أشرك فكأنه لم يشرك معه غيره وانما عدل تماما عن الاله الحق وصار الى غيره مما لا يخلق وهو يخلق •

---

(٧٣) الأنعام ١ •

(٧٤) نعم فى الجمادات حياة نامية قررها القرآن ووقع عليها علماء الأحياء أخيرا ولعل هذا هو الذى جعلهم يستبدلون بمصطلح علم الأحياء علم التاريخ الطبيعى فالاول كان مقصورا على دراسة الحيوان والنبات أما الثانى فقد شمل معهما بعض أنواع الجمادات •

(٧٥) الزمر ٣ •

و « يعدلون » وان كانت تفيـد أنهم جعلوا غير الله ـ يعدلونه الا أن المادة تدل على العدول بعنى الترك والتوجه الى الغير تماما ، فهم يعدلون بربهم غيره أو يعدلون عن توحيد ربهم وحمده وليسوا مجرد مشركين يشركون معه فى الحمد والثناء والعبادة غيره(٧٦) .

وثانى ما نقف عنده من آيات سورة الأنعام قوله تعالى «قل لمن ما فى السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة لاريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ، وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم »(٧٧) .

حيث ان الآية الأولى قصرت الملكية الحقيقية المكان على مالك واحد هو الله ، وقصرت الآية الثانية ملكية الزمن ـ أيضا ـ على مالك واحد هو الله فناسب ذلك ختم الآية بالسميع الذى يسمع ما يقوله المشركون فى مواجهة حقيقة الملكية،حيث انهم ـ لشدة تشبثهم بالحياة ـ يظنون أنهم المالكون وما هم بمالكين انما هم مستخلفون على ما تحوزه أيديهم ، نقول جعل فى مواجهة ما يمكن أن يصدر عنهم بالليل والنهار من الأفعال والتدابير والأقوال الظاهرة والخفية المجهورة والمهموسة الخيرة والشريرة صفة العليم ويؤيد ذلك أن قوله تعالى «وله ما سكن» يفسر السكن فيه بالسكنى ـ كما ذكر الزمخشرى(٧٨) ـ وهو بهذا يعنى كل ما اتخذ الليل والنهار سكنا فهو يعنى جميع الخلائق ويقرر ملكيتها لله وحده ـ كما قرر ـ من قبل ـ ملكية الخلائق كلها له سبحانه ، غير أنه فى

---

(٧٦) قوله « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » أى يجعلون له عديلا فصار كقوله « والذين هم به مشركون» النحل ١٠٠ ، وقيل يعدلون بأفعاله عنه وينسبونها الى غيره ، وقيل يعدلون بعبادتهم عنه تعالى ، وقيل الباء بمعنى عن راجع البصائر ٤/٣٠ .

(٧٧) الأنعام ١٢ ، ١٣ .

(٧٨) راجع الكشاف ٢/٨ .

الآية الأولى : « قل لمن ما فى السموات والأرض ؟ قل : لله » قد استقصى الخلائق من ناحية المكان ، وفى هذه الآية الثانية : « وله ما سكن فى الليل والنهار » قد استقصى الخلائق من ناحية الزمان،ومثله معروف فى التعبير القرآنى حين يتجه الى الاستقصاء،وهذا هو التأويل الذى نطمئن اليه فى الآيتين من بين شتى التأويلات والتعقيب بصفتى السمع والعلم يفيد الاحاطة بهذه الخلائق وبكل ما يقال عنها كذلك من مقولات المشركين الذين يواجههم هذا النص •

ولقد كانوا مع اقرارهم بوحدانية الخالق المالك يجعلون لأربابهم المزعومة جزءا من الثمار ومن الأنعام ومن الأولاد •

فهو يأخذ عليهم الاقرار — هنا — بملكية كل شىء ليواجههم بها فيما يجعلونه للشركاء بغير اذن من الله •

كما أنه يمهد بتقرير هذه الملكية الخالصة لما سيلى فى هذه الفقرة من ولاية لله وحده بما أنه هو المالك المتفرد بملكية كل شىء فى كل مكان وفى كل زمان الذى يحيط سمعه وعلمه بكل شيء وبكل ما يقال عن كل شىء كذلك(٧٩) •

ومما هو جدير بالتأمل — وكل كلام الله — عز وجل — جدير بالتأمل — قوله تعالى « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية

---

(٧٩) الظلال ٢/١٠٥٣ •

وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنــون »(٨٠) حيث ختم الآية الأولى بقوله «يعلمون» وختم الثانية بقوله «يفقهون» وختم الأخيرة بقوله « يؤمنون » .

وفى ذلك دقائق أظهـرها أن الاهتداء بالنجوم فى ظلمات البــر والبحر ــ وان كان نعمة كبرى ــ الا أن الوقوف على بعض أسراره أسهل وأسبق فى الوجود من الوقوف على بعض ما أذن الله بمعرفتــه من خلق الانس من نفس واحدة ثم تناسلهم بعد ذلك عن طريق ذكر استحفظ الله صلبه ذريته وأنثى جعل فيها مستودعا لما استخزن فى صلب الذكر .

وسيطول بنا المقام لو استعرضنا آيات خلق الانسان وأطواره من النطفة الى العلقة العالقة بجدار الرحـم الى المضغة التى تتشـكل وتتصور الى العظام التى تبنى ثم الى العضلات التى تنمو وتكســو العظام ، ثم تأتى أطوار أخرى يشق فيها السـمع والبصر ويتكون الدماغ والنخاع والأعصاب ، ويتكون الكبد والرئة والفؤاد ويقام هيكل جسم الانسان بالعظام المختلفة المقادير والأحجام والأشكال مفصـلة مربوطة بأوتارها مكسوة بلحمها وعضلاتها التى تشدها وتحركها (٨١) .

فلما كان انشاء الانسان أدق صـنعة وألطف تدبيرا ختـم الآية « بيفقهون » ولما كان الاهتداء بالنجوم أيسر فهما وأسهل ادراكا ختم الآية « بيعلمون » فكان ذكر الفقه هناك لأجل أن الفقه يفيد مزيــد

---

(٨٠) الأنعام ٩٧ ــ ٩٩ .

(٨١) خلق الانسان بين الطب والقرآن للدكتور محمـد على البـار: توزيع المكتبة العلمية بالمدينة المنورة / ١٥ .

فطنة وقوة ذكاء وفهم — والله أعلم(٨٢) — ٠

أما ختم قوله تعالى « وهو الذى أنزل من السماء ماء ٠٠ الآية » فان تأمل النبات وادراك النعمة فيه ظاهر واضح « لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » فمن لم يجد أمارات وجود الله وقدرته فى جريان الماء ونزوله من السماء وحياة الأرض به من نبات وحيوان ، ومن لم يجد فى الزرع الذى نما من حبة وصار شجرا فيه حياة الكون كله — من لم يعرف الله من ذلك — فليس عدم وجوده الأمارات راجعا الى حرمان من علم أو فقه ، انما هو راجع الى جحود وانكار وعدم ايمـان ٠

ان أمارات وجود الله وقـدرته وحكمته محسوسة ملموسـة فى الأرض يفطر قشرتها جنين مستكن فى بذرة ألقيت فكان منه ما كان من الحركة والنماء فمن لم يعرف ربه مع ابصاره ذلك أمامه ما حال بينه وبين المعرفة الا عدم الايمان ، وعدم ايمانه يجعله كأنه غير موجود وغير مبصر ، لذلك خصت الآية العبرة بالمؤمنين فقط مع أن العبـرة ظاهرة لمن آمن ولمن لم يؤمن ، لأن الذى أبصر ولم يؤمن حاله حال الذى لم يبصر مطلقا ، كأن عـدم ايمانه يعنى عدم انتفـاعه ببصره — والله أعلم — ٠

ومما هو جدير بالتأمل كذلك فى مناسبة المعنى المعنى — ختم قوله تعالى فى سورة الأنعام ذاتها « سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم »(٨٣) بينما ختم قوله تعالى فى سورة يوسف « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحاق ان ربك عليم حكيم »(٨٤) ٠

---

(٨٢) انظر التفسير الكبير للفخر الرازى ١٣/١٠٤ ٠
(٨٣) الأنعـام ١٣٩ ٠
(٨٤) يوسف ٦ ٠

ذلك أن ما فى الأنعام جاء ختاما للرد على تدخل البشر فى التحريم والتحليل وهذا الأمر من أفعال الرب ــ سبحانه وتعالى ــ الذى يحرم ما يحرم لحكمة ويحل ما يحل لحكمة يعلمها هو سبحانه ، وليس هناك من يملك على الرب ــ جل وعلا ــ طلب ذكر العلة التى من أجلها حرم ما حرم وأحل ما أحل ، لأنه ــ سبحانه « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون »(٨٥) .

والذى ينبغى أن يكون عليه البشر هو أن الله ــ عز وجل ــ فعل ما فعل لحكمة يعلمها هو قد تخفى على الكثيرين ، فختم الآية بقوله تعالى « حكيم عليم » مناسب للمعنى الذى سيقت له تمام المناسبة ، وهكذا الحال فى كل الآيات التى جاءت فى القرآن الكريم مقررة فعلا أوأمرا من الله ــ عز وجل ــ متعلقا بمقتضيات صفة القهر والأمر والنهى تختم جميعها بقوله سبحانه « حكيم عليم » بتقديم صفة

---

(٨٥) وقد حسم القرآن مسألة جرى البشر وراء علة التحريم حسما قاطعا عندما ألقى فى وجه الذين حاولوا استدراج التشريع الاسلامى الى الدخول معهم فى نقاش وجدل قائلين بعد أن حرم الله الربا ما حكاه عنهم القرآن « انما البيع مثل الربا » كأنهم يطلبون على دعواهم هذه الباطلة ردا يوضح لهم سبب تحليل البيع وتحريم الربا جريا على عادة المحاربين الذين يجعلون خير وسيلة للدفاع هى الهجوم ، أرادوا استدراج القرآن الى الدخول معهم فى بيان العلل وايضاح الأسباب ، فرد القرآن عليهم الرد الحاسم القاطع « وأحل الله البيع وحرم الربا » لا علة الا هذه فاذا قالوا : ولماذا أحل الله البيع وحرم الربا ؟ قيل فى مواجهتهم لأنه « حكيم » فيما يحل ويحرم « عليم » بما يصلح هذا الكون ويصون قانون حياته وحركته .

الحكمة على العلم(٨٦) .

وأما ختم الآية بقوله سبحانه « عليم حكيم » فانما يكون ساعة أن يكون الأمر متعلقا بالدلالة الربانية للبشرية يدلهم سبحانه على طريق الخير ويهديهم اليه ، حينئذ يتقدم العلم على الحكمة كما فى قوله تعالى « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم »(٨٧) .

---

(٨٦) وان أردت الوقوف على بعض هذه الآيات فى القرآن الكريم فاليك هذه الآيات « وتلك حجتنا آتينها ابراهيم على قومه نرفع درجت من نشاء ان ربك حكيم عليم » الأنعام ٨٣ .

« ويوم يحشرهم جميعا يمعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا آجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم ـ الأنعام ١٢٨ .

« سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم » الأنعام ١٣٩ .

« ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستئخرين ، وان ربك هو يحشرهم انه حكيم عليم » الحجر ٢٤ ، ٢٥ .

« وانك لتلقى القرءان من لدن حكيم عليم » النمل ٦ .

« وهو الذى فى السماء اله وفى الأرض اله وهو الحكيم العليم » الزخرف ٨٤ .

« قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم » الذاريات ٣٠ .

(٨٧) البقرة ٣٠ ـ ٣٢ .

وكما فى آية يوسف « وكذلك يجتبيك ربك » المتقدم ذكرها ختمت بقوله « عليم حكيم » لأن الحديث عن اجتباء يوسف من بين اخوته وتعليمه تأويل الأحاديث واتمام النعمة عليه تلك النعمة التى أتمها الله من قبل على أبويه ابراهيم واسحاق عليهما السلام .

قال الفخر الرازى « ثم انه — عليه السلام — يعنى يعقوب — لما وعد ولده يوسف بهذه الدرجات الثلاث يعنى — الاجتباء وتعليم تأويل الأحاديث واتمام النعمة ختم الكلام بقوله « ان ربك عليم حكيم » فقوله « عليم » اشارة الى قوله « الله أعلم حيث يجعل رسالته » وقوله « حكيم » اشارة الى أن الله تعالى مقدس عن السفه والعبث لا يضع النبوة الا فى نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية »(٨٨) .

ومن الفواصل التى ناسب فيها المعنى المعنى وتحقق لها تشابه الأطراف قوله تعالى فى سورة الأنعام « يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا

---

(٨٨) التفسير الكبير للفخر الرازى ١٨/١٩ ، وان أردت الوقوف على بعض الآيات التى ختمت بتقديم صفة العلم على الحكمة فى القرآن فاليك هذه الآيات .

١ — « قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم » البقرة (٣٢) .

٢ — « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم » النساء (٢٦) .

٣ — « وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم » الانفال (٧١) .

٤ — « فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » الحجرات (٨) .

٥ — « ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم » الممتحنة (١٠) .

٦ — « قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم التحريم (٢) .

على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ، ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون » حيث ختمت الآية الثانية بقوله تعالى « وأهلها غافلون » .

والمناسبة هنا أكيدة وطيدة ، ذلك أن الآية الكريمة جاءت بمثابة النتيجة للآية السابقة عليها .

الآية السابقة تقرر أن المتحدث عنهم من الجن والانس جاءتهم رسلهم بالبينات فكفروا وكذبوا ولم يستجيبوا ،فكانت عقوبتهم الاهلاك والتدمير فى الدنيا ، والعذاب الأليم فى الاخرة ، وكذلك عدل الله وفضله لا يهلك القرى وأهلها غافلون عن معرفة الحق والصواب ، وغفلة الأمم تكون قبل ارسال الرسل .

أما بعد ارسال الرسل وتبيينهم للناس الرشد من الغى والحق من الباطل والهدى من الضلال فما بقى لأحد حجة فى ادعاء الغفلة عن معرفة الصواب ولذلك تحل عليهم اللعنة ويصيبهم الدمار ويكونون حطبا لجهنم بعد أن يوبخوا ويبكتوا « ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء ان أنتم الا فى ضلال كبير وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » .

وأما فى سورة هود فان الله تعالى يقول : « فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض الا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »(٨٩) .

فان ختم الآية الثانية بقوله « وأهلها مصلحون » مناسب تمام

---

(٨٩) هود ١١٦ ـ ١١٧ .

المناسبة للمعنى السابق له فى الآية قبلـه ذلك أن الله ـ عز وجل ـ يخاطب بقوله « فلولا » وهى هنا بمعنى هلا كان فى القرون السـابقة عقلاء أصحاب نهى لهم بقية من عقل يقومون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ما كان لهذا النوع من الناس وجـود اللهم الا جمـاعة قليلة ممن قاموا بهذا الأمر فنجوا وهكذا فضل الله ورحمته التى كتبها على نفسه انه ما كان ليهلك القرى وأهلها صالحون يفعلون الصـلاح ويدعون اليه وينهون عن الفساد فى الأرض.ألم يحفظ سبحانه وتعالى الكنز للغلامين اليتيمين وسخر الخضر ومعه موسى عليهما السلام لاقامة الجدار فوقه حتى لا يضيع ويهلك ما كان ذلك الا لأن أباهما ـ كما قص القرآن الكريم ـ كان صالحا وقد ذكر المفسرون أن هذا الأب كان الجد السابع(٩٠) للغلامين .

ولا أستطيع أن ألقى القلم دون أن نتأمل معا قول الله تعالى فى سورة الأنعام « قل تعالوا أتل ما حرم ربكـم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من أملاق نحن نرزقكـم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » .

وقوله عز وجل فى سور الاسراء « ولا تقتلوا أولادكم خشـية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا » .

حيث جاء قوله فى سورة الأنعام نحن نرزقكم واياهم وجـاء فى سورة الاسراء نحن نرزقهم واياكم .

ذلك أن الاملاق فى سورة الأنعام ليس مخشيا وانما هو معـانى يكابده الاباء حقيقة وساعة أن يكون الأمر كذلك فالتطمين يبدأ بالنفس

---

(٩٠) راجع تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٣/٩٩ .

أولا ثم بما يلى ذلك أهمية • فالجوعان يفكر أول ما يفكر فى سد جوعته هو ثم بعد ذلك يتجه الى ما هو جزء منفصل عنه وهو الولد وأما فى سورة الاسراء فالخوف من الفقر ليس واقعا وانما هو متوقع ولذلك تتجه الاية الى بيان أن رزق المخوف منهم الفقر وهم الأولاد مضمون على الرزاق سبحانه وتعالى ثم يتعدى ذلك الضمان ليشــمل الوالد الخائف والذى يمكن أن يدفعه خوفه الى قتل ولده •

اللهم ارزقنا الطمــأنينة والأمن وزدنا خيرا • والحمــد لله أولا وآخرا وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد •

د • / عبد الرازق محمد محمود فضل
مدرس البلاغة والنقد

أهم مصادر هذه الدراسة

١ ـ اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للمرحوم / مصطفى صادق الرافعى ـ دار الفكر العربى •

٢ ـ الأمالى لأبى على القالى ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت •

٣ ـ بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للمجد الفيروزبادى ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية •

٤ ـ البيان والتبيين للجاحظ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت •

٥ ـ تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ـ مكتبة الدعوة الاسلامية ـ شباب الأزهر •

٦ ـ التفسير الكبير للرازى ط٢ دار الكتب العلمية ـ طهران •

٧ ـ ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ، ت ـ محمد خلف الله أحمد د• محمد زغلول سلام ـ دار المعارف •

٨ ـ خلق الانسان بين الطب والقرآن للدكتور محمد على البار ـ الدار السعودية للنشر •

٩ ـ دلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجانى تحقيق الشيخ محمود شاكر ـ الخانجى •

١٠ ـ دلالات التراكيب للاستاذ الدكتور أبى موسى ـ مكتبة وهبة •

١١ ـ ديوان زهير ابن أبى سلمى ـ دار صادر ـ بيروت •

١٢ ـ سر الفصاحة لابن سنان ت الشيخ عبد المتعال الصعيدى ـ صبيح •

١٣ ــ شروح التلخيص ــ عيسى البابى الحلبى سنة ١٩٣٧ •
١٤ ــ الشعر الجاهلى منهج دراسته وتقويمه للدكتور / محمد النويهى ــ القومية للطباعة والنشر •
١٥ ــ كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت •
١٦ ــ فى ظلال القرآن للمرحوم / سيد قطب ــ دار الشروق •
١٧ ــ القاموس المحيط للفيروزبادى دار الجيل ــ بيروت •
١٨ ــ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشرى ــ ــ دار المعرفة بيروت •
١٩ ــ لسان العرب لابن منظور ــ ط بيروت سنة ١٩٥٦ •
٢٠ ــ المجازات النبوية للشريف الرضى ــ تحقيق وشرح د• طه الزينى ــ مؤسسة الحلبى •
٢١ ــ المثل السائر لابن الأثير ــ ت د• الحوفى ــ د• بدوى طبانة ــ مكتبة نهضة مصر •
٢٢ ــ المطول للسعد التفتازانى ط أحمد كامل سنة ١٣٣٠هـ •
٢٣ ــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقى دار الحديث •
٢٤ ــ المنتخب من أدب العرب لأحمد السكندرى وآخرين ط بولاق سنة ١٩٤٢ م •
٢٥ ــ من بلاغة القرآن الكريم للدكتور / أحمد أحمد بدوى ــ نهضة مصر •
٢٦ ــ النبأ العظيم الدكتور / محمد عبد الله دراز ــ دار القلم •
٢٧ ــ نظم الدرر تناسب الآى والسور للشيخ برهان الدين البقاعى مخطوطة بدار الكتب ــ ٢١٣ تفسير •